الدرس الثاني

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

(الحجر:١٦-٢٥) .

الآيات الكونيَّة في السموات والأرض :

لا زلنا مع هذه السورة المكية الكريمة سورة الحجر ، وما زلنا مع الآيات والدلائل التي ساقها الله إلينا لنعتبر بها ونتخذ منها عظة ، ولنعرف منها وحدانية الله ، وقدرته وإبداعه وحكمته وكماله واتصافه بأسمائه الحسنى .

ذكر الله عددًا من الآيات والدلائل التي تدل على وحدانيته وقدرته وحكمته في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ هذه هي الآية الأولى .

والآية الثانية من آيات الله : ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ .

والآية الثالثة : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ .

OBEIKAN.COM

والآية الرابعة من آياته الدالة على قدرته وحكمته : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

والآية الخامسة : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ .

والآية السادسة : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ .

والآية السابعة : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ذكر الله سبحانه في هذه الآيات الدلائل الكونيَّة على الحقائق التي جاء بها محمد ، وهم يَجْحدونها وينكرونها عِنادًا ، جاء محمَّدٌ بالتوحيد ، وبترك عبادة الأصنام ، التي لا تُغْني عنهم شيئًا ، لا تبصر ولا تسمع ، ولا تضرُّ ولا تنفع ، ولا تصل ولا تقطع ، فجاء بالتوحيد الذي بُعث به الأنبياء جميعًا : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥) ، وجاء بالبعث بعد الموت ، وأنَّ هذه الدنيا ليست هي الدار الوحيدة ، إنَّما هي دَارُ مَمَرّ ، ولكن هناك دار مَقَرٍّ ، هنا الزرعُ وهناك الحصاد ، هنا العملُ وهناك الحساب ، هذه الدار محدودةٌ نعيش فيها أيامًا ثم نفارقها بالموتُ ، وليس الموت نهايةَ المطاف ، بل الموتُ رحلةٌ من دار إلى دار ، قال الشاعر :

وما الموتُ إلا رحلةٌ غير أنها ... من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي[1]

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : إنمَّا خُلِقتُم للأبد ، وإنما تنقلون بالموت من دار إلى دار[2].

جاء الرسول ﷺ بهذين الأمرين : التوحيد ، والجزاء في دار الخلود ، الجنَّة أو النار ، وهم يُكذِّبون بهذا وذاك .

---

(١) من شعر أبي العتاهية .

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٨٧/٥).

OBEIKAN.COM

والقرآن كان دائمًا يقيم دلائل كونيَّة ، الآيات التي بثَّها الله في الكون ، في الآفاق ؛ ليشهدوا عَظَمَةَ الله وقُدرتَه ، وهنا ذكر القرآن في هذه السورة عددًا من هذه الآيات الكونيَّة العظيمة ، التي تَدُل على عَظَمَةِ صاحبها ، وعلى رَوْعَةِ خدمتها ، وعلى إبداع هذا الكون .

عالم السماوات :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾(الحجر:١٦-١٨)[١]

هذا العالم عالمُ السماوات عالمٌ عظيمٌ لا يعلمه إلا الله ، أظهر لنا علم الفلك الحديث شيئًا من سَعَةِ هذا الكون ، الأرض التي نحن عليها هي شيء صغير في المجموعة الشمسيَّة ، يعنى مساحة الأرض بالنسبة للشمس ضئيلة جدًّا ، والمجموعة الشمسيَّة بالنسبة للمجرَّة ضئيلةٌ جدًّا . والمجره بالنسبة لسائر المجرات ضئيلة جدًّا .

البروج في السماء :

والبروج : هل هي الكواكب؟! أو هي المنازل التي تسيرُ فيها الكواكب والشمس[٢]؟ والبروجُ تدلُّ على عَظَمةِ هذه السماء ، والأصل في البرج هو البناء

---

(١) أصل معنى البروج في اللغة : القصور العالية المتطاولة في السماء . ويقال في اللغة : بَرَج الشيء يبرُجُ بروجًا ، أي : ارتفع وظهر . ويقال : تبرجت السماء ، أي : ازيَّنت بالكواكب . وأطلقت البروج على منازل الكواكب والنجوم السيَّارة .
فمن دلائل قدرة الله سبحانه : أنه أتقن حركة الأرض في مقابل مواقع النجوم في السماء ، إتقانًا بديعًا ، يتمكَّن به الناس في الأرض من تحديد منازل في السماء تظهر فيها الشمس ، ويعرفون بها بدء السنة الشمسية ونهايتها ، وأقسام شهورها وفصولها الأربعة .

(٢) أطلق العرب كلمة (بروج) على مواقع أو منازل في السماء تخيَّلوا أنها منازل للشمس ، وجعلوها اثني عشر موقعًا ، بعدد شهور السنة الشمسية ، إذ تعود في نهاية السنة الشمسية إلى الموقع الأول الذي رصدوه في أولها . وأطلقوا على المسافة التي تُخال الشمس قد اجتازتها في السنة (دائرة البروج) .

OBEIKAN.COM

الكبير العالي كما قال تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (النساء:٧٨) .

والبروجُ فى السماء بناءٌ عظيمٌ ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾(الذاريات:٤٧)، وقد سُمِّيت بروجًا ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ (البروج:١)، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (الفرقان:٦١) .

إبراز عنصر الجمال في الكون :

﴿ وَزَيَّنَّهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾

زيَّن الله سبحانه السماء وجمَّلها ، فحين تنظر إلى السماء وزرقتها الهادئة ، وسُحُبها الموزَّعة ، ونجومها البديعة ، تستمتع بهذا النظر ، وهذا يدُلنا على اهتمام القرآن بإبراز عنصر الجمال فى الكون ، وإبراز الجمال فى السماء ، وإبراز الجمال فى الأرض ، وإبراز الجمال فى الحيوانات ، قال تعالى : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل:٥،٦) ، الإبل والأبقار والأغنام حين يذهب بها الراعي ويعود بها . انظر إلى هذه اللوحة ما أجملها .

وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (النمل:٨٨) ، كلُّ شيء فى هذا الكون مُتْقَن ، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (السجدة:٧) .

ويلفت النظر إلى عنصر الجمال في النبات : ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ (النمل:٦٠) ، أي : ذات جمالٍ ورَوْعَةٍ .

وكذلك الجمال في السماء : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (ق:٦) ، أى : لا يوجد فيها شقوق ولا عيوب ، وكذلك

OBEIKAN.COM

كل ما خلق الله : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ (الملك:٣) .

فالقرآن يهتم بعنصر الجمال والزينة : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:٨) .

ويقول سبحانه عن البحر : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (النحل:١٤) .

عناصر الجمال فى الكون يهتمُّ القرآن بها ، الجمال فى الإنسان والحيوان والنبات والسماء والأرض ، لهذا اهتمَّ القرآن بعنصر الزينة ، كما قال الله تعالى فى سورة الملك : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ (الملك:٥) .

قال قتادة : خلق هذه النجوم لثلاث : جعلها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ؛ فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ ، وأضاع نصيبه ، وتكلَّف ما لا علم له به[1].

حِفْظُ السماء من كلِّ شيطان رجيم :

﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾

أي : حَمَيْنا السماء من الشيطان الرجيم ، ومنعناه من دخولها ، فلا يستطيع الشيطان أن يسمع الملائكة وهي تنزل بوحي الله من السماء : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ ، حَفِظَ الله السماء من كلِّ شيطان مرجوم ملعون مطرود من رحمة الله .

والشيطان مخلوق من النار ، وهو من الجن ، والجنُّ مُكلَّفون كما كُلِّف الإنس : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) ، منهم الصَّالح والطالح ،

---

(١) رواه البخاري تعليقا ، في : بدء الخلق ، باب في النجوم . ورواه موصولا الطبري في التفسير (٢٣/٥٠٨) .

OBEIKAN.COM

ومِن هولاء الطالحين ، الشياطين الذين سلَّطهم الله على بني آدم ، يوسوسون لهم ، كما ذكر الله تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ (إبراهيم:٢٢) ، أما عباد الله الصالحون فليس له عليهم أيُّ سلطان ، ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (الحجر:٤٢) ، يُغْويهم بالوسوسة .

﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ ، لا يستطيع الشيطانُ أن يسمع الملائكة وهي تنزل بوحي اللهِ من السماء .

استراقُ الشياطين السَّمع قبل بعثة الرسول ﷺ :

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (١)

كان كهان العرب في الجاهلية قبل الإسلام يستطيعون أن يخبروا ببعض الغيوب ، عن طريق الشياطين الذين يسترقون السَّمْعَ ، ويسمعون بعضَ الكلام في السماوات ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : سأل أناسٌ رسول الله ﷺ عن الكُهَّان؟ فقال لهم رسول الله ﷺ : « ليسوا بشيءٍ » . قالوا : يا رسول الله ، فإنَّهم يُحدِّثون أحيانًا الشيء يكون حقًّا . قال رسول الله ﷺ : تلك الكلمة من الجنِّ ، يخطفها الجنيُّ ، فيقرُّها في أُذن وليِّه قرَّ الدجاجة ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة . فالكَهَنَة هم الكَذَبة ، كما أخبر النَّبيُّ ﷺ ، « أنهم ليسوا بشيء »(٢).

---

(١) استرق السمع : استمع مستخفيًا ، مأخوذٌ من السرقة ، وهي أخذ الشيء خفية . ﴿ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر واضح لكلِّ مبصر . والشهاب هو الشعلة الساطعة من النار ، ويطلق على النجم المضيء اللامع . ويطلق على جرم سماوي في الفضاء فإذا دخل في جو الأرض انجذب إليها فاشتعل وصار بعد ذلك رمادًا .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦٢١٣)، ومسلم في السلام (٢٢٢٨)، عن عائشة .

OBEIKAN.COM

نزولُ الشُّهب الحارقة على مُسْتَرقي السمعَ بعد بعثة الرسول :

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ ﴾[1]، لحقه بسرعة وقوة ﴿ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ ، أي : شُعلة من النار ، تنزل عليه فتحرقه ، وخصوصًا بعد بعثة النَّبيِّ ﷺ ، كما قال الله تعالى على لسانِ الجنِّ : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ (الجن:٨) ، أى : إنَّ السماءَ محروسةٌ ومُحصَّنة : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ (الجن:٩) ، فهذا كان الحال بعد بعثة النبي ﷺ : ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ .

آياتٌ في عالم الأرض :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾

بعد ذكر الآيات السماويَّة التي تتعلَّق بالعالم العُلوي ، ذكر سبحانه آيات تتعلَّق بالعالم السُّفْليِّ ، في : الأرض التي نعيش عليها ، وذكر فيها ثلاث قضايا : الأولى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ ، والثانية : ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ ، والثالثة : ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ .

الأرضُ مبسوطةٌ ومُكوَّرة :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾

أي : بسطناها . وفى بعض الآيات جَعَل الأرض فراشًا ، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ (البقرة:٢٢) ، وتارةً مهادًا ، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾ (النبأ:٦) ،

---

(١) أي : اتَّخذ ما يستطيع من وسيلة ليسرق الأقوال بسمعه . وكانت الشياطين يسترقون بمسامعهم ما تتحادث به الملائكة في السماء ، وما يلقى إليهم من أوامر وأنباء ، فمنعوا من ذلك .

OBEIKAN.COM

وتارةً بساطًا ، ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ (نوح:١٩) ، أي : بساطًا ، أي : مبسوطةً[١] ، صالحةً للعيش فيها ، صالحةً للحياة البشريَّة عليها ، كما قال عز وجل على لسان سيدنا نوح : ﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ (نوح:٢٠) ، كيف هذا وهى مُكوَّرة ، ونحن نعلم الآن أنَّ الأرض مكوَّرة ، فهو أمرٌ ثابتٌ عند علماء المسلمين وعلماء الكلام .

كما ذكر ابن حزم (ت٤٥٦هـ) ، فهو يثبت كرويَّة الأرض بأدلة علمية فى كتابه (الفِصَل فى الملل والنِّحَل) : (قالوا : إن البراهين قد صحَّت بأن الأرض كروية ، والعامة تقول غير ذلك .

وجوابنا وبالله تعالى التوفيق : إن أحدًا من أئمة المسلمين المستحقِّين لاسم الإمامة بالعلم رضي الله عنهم لم ينكروا تكوير الأرض ، ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة ، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها ، قال الله عز وجل : ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ (الزمر:٥) ، وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض ، مأخوذٌ من كور العمامة ، وهو إدارتها . وهذا نصٌّ على تكوير الأرض ودوران الشمس كذلك ، وهي التي منها يكون ضوء النهار بإشراقها ، وظلمة الليل بمغيبها ، وهي آية النهار بنصِّ القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ (الإسراء:١٢) . . .)[٢] .

جواب الإمام الرازي عن بسط الأرض وكُرويّتها :

قال الإمام الرازي : (فإن قيل : هل يدل قوله : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾ على أنها بسيطة ؟

---

(١) أي : غير مُحدَّبة ولا مقعَّرة ولا مائعة رجراجة ، مع ما فيها من التكوُّر والمنعطفات والتعرُّجات ، ومجامع المياه ، لتتيسّر عليها حياة البشر .

(٢) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٩٧/٢) ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .

OBEIKAN.COM

قلنا : نعم ؛ لأن الأرض بتقدير كونها كرة ، فهي كرة في غاية العظمة ، والكرة العظيمة يكون كلُّ قطعة صغيرة منها ، إذا نُظر إليها فإنها ترى كالسطح المستوي ، وإذا كان كذلك زال ما ذكروه من الإشكال ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبأ:٧)، سمَّاها أوتادًا ، مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية ، فكذا ههنا)[١] .

ومن أدلَّة ذلك : أنها لو لم تكن كرويَّة لكان لها أطراف فى الشَّرق وفى الغرب والشمال والجنوب ، إذا مشينا سنصل إلى حرف ، وأمامنا فراغ ، ولم يقل أحد بذلك ، فهي كرة ، ولكنها مبسوطة ومفروشة ليعيش عليها الناس .

تثبيت الأرض بالجبال :

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ ، جبالاً ثوابت رواسخ ، أي : ثبَّتناها بالجبال : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (النحل:١٥)[٢] ، فالجبال كالأوتاد للأرض ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبأ:٧).

وعلماء الجيولوجيا فى عصرنا ، مثل الدكتور زغلول النجار وأمثاله ، هم الذين بيَّنوا لنا فائدة الجبال فى الأرض ، وترسيخها كي لا تَضْطرب ولا تميدَ بهم[٣].

آية الله في إنبات الموزونات في الأرض :

﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾

بعد تثبيت الأرض بالجبال الرواسي حتى لا تميد ، وبَسْطها ، ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا ﴾

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي (١٩/١٧٠) ، المطبعة البهية المصرية ، الطبعة الأولى ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م .

(٢) أي : حتى لا تضطرب ولا تتحرك بسبب الضغط الغازي الذي في داخلها .

(٣) انظر : موسوعة الإعجاز العلمي : الأرض في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار صـ٢٢٢ - ٢٣٠ ، طبعة دار المعرفة ، بيروت .

OBEIKAN.COM

أي : في الأرض ، ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [1] ، كيف يكون كلُّ شيء موزونا؟!

اختلف المفسِّرُون القُدماء فى هذه اللفظة ، قالوا : إنها تنبت حبوبًا وثمارًا تُوزَن . والبعض قالوا : لا ، الموزون يعني مُنْضبط ، يعني مُقَدَّر ، فالوزن هنا موزونٌ أدبيٌّ أو معنويٌّ .

وقال الإمام الرازي : (والله تعالى إنما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم ، فلا بدَّ وأن يحصل من الأرض قدر مخصوص ، ومن الماء والهواء كذلك ، ومن تأثير الشمس والكواكب في الحرِّ والبرد مقدار مخصوص ، ولو قدَّرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص أو النقصان عنه ، لم تتولَّد المعادن والنبات والحيوان ، فالله سبحانه وتعالى قدَّرها على وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته ، فكأنه تعالى وزنها بميزان الحكمة ، حتى حصلت هذه الأنواع)[2].

إنَّ كلَّ شيء فى الكون بِقَدَرٍ ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩) ، تقديرٌ معلومٌ ، ليس هناك شيء اعتباطيٌّ ، ولا شيء عَبَث ، كلُّ شيء مُقدَّر : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢).

وفى عصرنا يقول علماء الجيولوجيا وعلماء النبات : كل نبتة تأخذ غذاءها من الأرض بميزان ، أملاح بنسبة معيَّنه ، وماء ومعادن وحديد بنسبة معيَّنه ، كلُّ شيء بموازين مُعيَّنة ، كلُّ شيء فى هذا الكون موزون : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:٧-٩) ، الميزان الكوني ، إذا اختَلَّ ميزان الكون فَسَدَت البيئة : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر:٢١) .

---

(١) أي : مقدَّر بمقدار معين اقتضته الحكمة .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي (١٩/١٧١ ، ١٧٢) .

OBEIKAN.COM

تأمين المعاش في الأرض للإنسان والحيوان :

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ [1]

جَعَلنا لكم في الأرض مَعَايش ، أرزاقًا تعيشون منها وتَحْيَون بها ، من طعام موفور ، وثياب سابغة ، ومأوى تأوون إليه ، مكنكم الله سبحانه منه ، فالله سبحانه وتعالى ضَمِنَ لكلِّ مخلوق رزقه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود:٦) ، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (العنكبوت:٦٠) .

وقبل أن يُحدِّثنا الله عن خلق آدم قال فى سورة الأعراف : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف:١٠) ، ثم قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ (الأعراف:١١) ، قبل خلق آدم وتصويره ، مكَّن الله له في الأرض ، وَجَعَل فيها معايش ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ (فصلت:١٠) ، حين خلق الله الأرض بارك فيها ، قدَّر فيها أقواتها ، معايش للناس مضمونة وموزونة .

المتشائمون من زيادة عدد البشر :

يرى الاقتصادي الإنجليزي المشهور (روبرت مالتوس ت ١٨٣٤م) ، وكان متشائمًا : إنَّ البشر ينمون بمتوالية حسابيَّة ، (١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ وهكذا).

---

(١) العيش : الحياة ، يقال : عاش فلان عيشًا ومعاشًا ومعيشة ، أي : حيي وصار حيًّا . ومنه قوله ﷺ : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» متفق عليه : رواه البخاري (٢٩٦١) ، ومسلم (١٨٠٥)، كلاهما في الجهاد . أي : لا حياة دائمة إلا حياة الآخرة . وتجمع المعيشة على معايش كما هنا ، وكما في سورة الأعراف : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ (الأعراف:١٠) . والعيشة هي حالة الإنسان التي يكون عليها في حياته من رخاء أو ضيق ، وسعادة أو شقاء . (تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم) للشيخ عبد الجليل عيسى رحمه الله تعالى .

OBEIKAN.COM

بينما يزيد الإنتاج وفق متوالية هندسية ، مما سيؤدي حتمًا إلى عدم كفاية الموارد للناس . فكان يدعو إلى تحديد النسل من قَرْنَيْنِ مَضَيا . ولكن أثبت الواقع التاريخي أنَّ الأرض فيها مُتَّسع ، فالبحار أربع أخماس الأرض ، فيها ثروات لم يستطع الناس أن يستفيدوا منها بعد .

فالأرازق فى الأرض موجودة ، والله هيَّأ فيها المعايش . هذه مادة يائية ، ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ ، ومعايش : جمع مَعيشة[1] ، لا تُجمع على معائش ، أي : معايش تكفيكم وتُغْنِيكُم ، لأنه سبحانه وتعالى أحكم من أن يَخْلقَ الخلق ثم يَدَعهم ولا يضمن لهم معايشهم .

﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ ، جلعنا لدوابِّكم وأولادكم وخدمكم وكلِّ ما يحيط بكم ، معايش فى هذه الأرض مثلكم .

هيَّأ الله لهم المعايش فى هذه الأرض ، كما قال الله تعالى بالنسبة للأولاد : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ (الإسراء:٣١)، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الأنعام:١٥١) ، الرازق هو الله ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (الذاريات:٥٧،٥٨) ، فالله الرزَّاق ، فلا تعتقدوا أنكم ترزقون أحدًا .

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾[2]

ما من شيء من الأشياء في الكون كلِّه ، من نباتات وحيوانات ومَعَادن ، وممَّا في البرِّ والبحر ممَّا يَتَخَيَّل الإنسان ، إلا عندنا خزائنه في علمنا وقدرتنا وتَصرُّفنا .

خزائن الله ومفاتيحها بيد الله عزَّ وجلَّ ، وهي خزائن واسعة رحبة ، لا يخطر ببالنا مدى سَعَة خزائن الله : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ

---

(١) على وزن : مَفْعِلة ، مصدر للفعل عاش ، وعُبِّر به عن اسم الذات للمبالغة .

(٢) خزائنه : أصل الخزانة هي ما يحفظ فيها الشيء النفيس ، والمراد بها هنا كنأية عن كلِّ ما ينتفع به .

﴿ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ (الطور:٣٧) ، خزائن الله عزَّ وجلَّ بيده ، كلُّ شيء بيده : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ (الإسراء:١٠٠) .

من فَضْلِ الله ورحمته ، أنه لم يجعل مفاتيحَ خزائنهِ بيدِ أحدٍ من الخلق ، لأنَّ الخلق أشحَّاء ، ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ (النساء:١٢٨) ، فلو كانت مفاتيح خزائن الله بيد أحدٍ من البشر كنَّا سنموت جوعًا ،لأن يد الله سحّاء في الليل والنهار. وفي الحديث القدسي الذى رواه مسلم ، عن أبى ذرٍّ : « يا عبادي ، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنَّكم ، اجتمعوا فى صعيدٍ واحد فسألوني ، فأعطيتُ كلَّ واحد مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئًا ، إلا كما ينقص المِخْيط إذا دخل البحر »[١] . والمخيط : الإبرة . لو أدخلت الإبرة في المحيط الهادي أو الخليج أو البحر الأحمر ، ماذا تنقص منه؟

آيات الله الكونيَّة في القَدَر المعلوم :

﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾

رزقُ الله سبحانه وتعالى واسعٌ : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾، أي : بمقدار حاجة البشر ومصالح البشر ، وكلُّ شيء بِقدرٍ معلوم ، ولا يكون تنزيله لأيِّ شيءٍ جزافًا ، دون تقديرٍ حكيم .

بعض علماء الطبيعة والرياضيَّات[٢] ، في أمريكا ، ذكروا فى كتاب (الإنسان لا يقوم وحده) باللغة الإنجليزية ، وتُرجم إلى العربية ، تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان)[٣] : (لا بدَّ للحياة فوق أرضنا هذه من شروط جوهرية عديدة ، بحيث

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧) .

(٢) هو كريسي موريسون ، الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك ، ورئيس المعهد العلمي فيها .

(٣) ترجمه إلى العربية محمود صالح الفلكي ، بعنوان : (العلم يدعو إلى الإيمان) وموضوع الكتاب ردٌّ على كتاب (الإنسان يقوم وحده) لجوليان هكسلي أحد الملاحدة الذي زعم أن الإنسان وحد بلا خالق .

OBEIKAN.COM

يصبح من المحال حسابيًّا أن تتوافر كلَّها بالروابط الواجبة ، بمجرَّد المصادفة على أيِّ أرض ، في أيِّ وقت . لذلك لا بدَّ أن يكون في الطبيعة نوع من التوجيه السديد . وإذا كان هذا صحيحا ، فلا بدَّ أن يكون هناك هدف . . .

تلك الحزمة من الكون التي نسمِّيها بالكرة الأرضية ، إنها جسم لا أهمية له في نظر الفلك ، ومع ذلك يمكن القول بأنها أهمُّ جسم حتى الآن .

ويجب أن نفرض أن الكرة الأرضية مكونة من بعض العناصر التي توجد في الشمس ، لا في أيِّ كوكب آخر ، وهذه العناصر مقسَّمة على الكرة الأرضية بنسب معيَّنة ، قد أمكن التحقُّق منها لدرجة مقبولة فيما يتعلَّق بالسطح .

وقد حولت جملة الكرة الأرضية إلى أقسام دائمة ، وحدود حجمها ، وسرعتها في مدارها حول الشمس هي ثابتة للغاية ، ودورانها على محورها قد حُدِّد بالضبط ، لدرجة أن اختلاف ثانية واحدة في مدى قرن من الزمان يمكن أن يقلب التقديرات الفلكية . . .

ولو أن حجم الأرض كان أكبر مما هو عليه ، أو أصغر ، أو لو أن سرعتها مختلفة عما هي عليه ، لكانت أبعد أو أقرب من الشمس مما هي ، ولكانت هذه الحالة ذات أثر هائل في الحياة من كلِّ نوع ، بما فيها حياة الإنسان . وكان هذا الأثر يبلغ من القوة ، بحيث إن الكرة الأرضية لو كانت اختلفت من هذه الناحية أو تلك إلى أيَّة درجة ملحوظة ، لما أمكن وجود الحياة فوقها .

ومن بين كلِّ الكواكب السيارة ، نجد أن الكرة الأرضية فيما نعلم الآن ، هي الكوكب الوحيد الذي كانت صلته بالشمس سببا في جعل نوع حياتنا ممكنا . . .

والمتَّفق عليه الآن عموما ، أن الحياة لم توجد قط ، ولا يمكن أن توجد ، في أيِّ شكل معروف ، على أيِّ كوكب سيَّار غير الكرة الأرضية . لذلك لدينا في البداية الأولى ، كوطن للمخلوقات البشرية كوكب سيَّار صغير ، قد أصبح بعد

OBEIKAN.COM

سلسلة تغييرات في مدى بليوني سنة أو أكثر ، مكانا صالحا لوجود الحياة الحيوانية والنباتية ، التي توجد بالإنسان .

وتدور الكرة الأرضية حول محورها مرَّة كلَّ أربع وعشرين ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة ، والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة ، ولِمَ لا ؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرَّات ، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارَّة نباتاتنا في كلِّ نهار ، وفي الليل قد يتجمَّد كلُّ نبت على الأرض .

إن الشمس التي هي مصدر كلِّ حياة ، تبلغ درجة حرارة مسطحها (١٢٠٠٠) درجة فهرنهايت ، وكرتنا الأرضية بعيدة عنها إلى حدٍّ يكفي لأن تمدَّنا هذه (النار الهائلة) بالدفء الكافي ، لا بأكثر منه . وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب ، وكان تغيُّرها في خلال ملايين السنين من القلَّة ، بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرَفناها . ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة ، فإن كلَّ نبت يموت ، ويموت معه الإنسان حرقا أو تجمُّدًا ...)[1] إلى آخره .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر:٢١) ، ويقول الله عن إنزال الماء بقَدَر : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ (المؤمنون:١٨) ، أى : لو نزل الماء كثيرًا ؛ لغرق الناس ، ولو قلَّ الماء ؛ لهلك الناس ، لأنَّ الماء سبب للحياة : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (الأنبياء:٣٠) ، ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (الشورى:٢٧) ، علمُ عليم ، وخِبرةُ خبير ، لا يخفى عليه شيء ، كلُّ شي عنده بمقدار .

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان أ . كريسي موريسون صـ٥١ - ٥٥ ، ترجمة محمود صالح الفلكي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة السابعة ١٩٧٨م .

OBEIKAN.COM

آيات الله تعالى في الريح والرِّياح :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾

هذه آيةٌ من آيات الله عزَّ وجلَّ ، حيث يسُوقُ الرياح بُشْرًا بين يدي رحمته ، بين يدي المطر . سوق الرياح لواقح ، كالناقة التي تحمل في بطنها حَمْلَها ، أو المرأة التي تحمل ، لواقح أي : حوامل بالماء ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً ﴾ ، أي : بالماء ، ﴿ سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (الأعراف:٥٧) .

فالرياح تحمل الماء ، وكأنَّها مُلقِّحة بالماء ، هذا هو المراد باللقاح هنا ، وليس المراد : الرياح لواقح ، كما ذكر بعض المُحْدَثين والمعاصرين : أنَّ الرياح تُلَقِّح الشجر .

هذا صحيح من الناحية العلميّة ، ومن الناحية الواقعيّة ، الرياح تَلَقِّح الشجر ، تنقل حُبوب التذكير إلى حبوب التأنيث ، وحبوب التأنيث إلى حبوب التذكير ، وهذا ممَّا أثبته العلم الحديث ، وأنَّ كلَّ الكائنات الحيَّة فيها ذكور وفيها إناث ، فيها مذكَّر وفيها مؤنَّث ، ولا بدَّ أن تُنقل حبوب هذا إلى ذاك ، والرياح لها تأثير في ذلك .

قاعدة الزوجيَّة في الكون :

وكان الناسُ يجهلون تلك الحقيقة التي أثبتها القرآن حينما قال : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس:٣٦) ، وقرَّر هذه القاعدة الكليَّة في سُورة الذاريات حينما قال : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات:٤٩) ، خلقنا زوجين ، أي : ذكرا وأنثى ، أو مُوجبا وسالبا ، حتى الذرَّة التي هي وحدة البناء الكونيِّ لهذا العالم ، فيها بروتون وإلكترون ، أو شحنة كهربائية موجبة وشُحنة كهربائية سالبة ، هذا الكون

OBEIKAN.COM

قائمٌ على هذا التقابل وهذا الازدواج ، قاعدة الزوجيَّة قاعدة عامَّة في هذا الكون ، كلُّ شيء مزدوج ، ليس هناك واحد إلا الله ، وماعَدَا الله كلُّه مزدوج ، يكمِّل بعضه بعضًا بالتقابل .

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ ، ليس المراد منها ـ كما قلنا ـ أنها تُلَقِّح الشجر والنبات ، وإن كانت هذه حقيقة ، إنما هي تُلَقِّح الماء ، لواقح بالماء أي : حوامل بالماء ، والسياق يقرِّر ذلك .

إنزال الماء الصالح للشرب : ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً[1] فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ[2] ﴾

﴿ فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ ﴾ [3] ، سواءٌ أنتم أو أنعامكم ، ﴿ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾ (النازعات:٣٣) ، (عبس:٣٢) ، تشربون أنتم ودوابُّكم وبهائمكم وكلُّ ما حولكم .

والله سبحانه وتعالى ، أنزله من جهة السماء من السحاب ، ماءً صالحًا للشرب ، كان يمكن أن يكون هذا الماء غير صالح للشرب ونموت من العطش ، ولكن كما قال الله عزَّ وجل : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ـ من السُّحب ـ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا

---

(١) جاءت عبارة ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ بعد بيان إرسال الرياح لواقحَ بحرف (الفاء) الدالة على الترتيب مع التعقيب ، للدلالة على أنَّ الرياح بما تحمل من جسيمات صلبة صغيرة جدًّا ، تكون بمثابة التلقيح لبخار الماء في السحاب بوساطة الجسيمات ، إذ تتكوَّن حولها حبَّات المطر أو الثلج أو البرد ، وعقب ذلك ينزل الماء من السماء ، بتدبير الله الحكيم .

(٢) يخاطب الله سبحانه الناس بضمير المتكلم العظيم ، ويبين لهم أنه هو الذي أسقاهم الماء الحلو العذب بتدبيراته الحكيمة ، إذ جعل البخار يتصاعد في الجو بفعل الحرارة التى تمد بها أشعة الشمس ، ويتكوَّن سحبًا ، وأرسل الرياح حاملاً لجسيمات اللقاح ، فاجتمعت حولها حبات المطر ، فثقلت بالتكاثف ، فقويت جاذبية الأرض على اجتذابها إليها ، فنزلت ماء عذبا سائغًا للشاربين .

(٣) ﴿ فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ ﴾ الفاء عاطفة على (أنزلنا) ، وجعل الخطاب بالسقي للناس مع أنه سقي الزرع والعشب والأشجار والإنسان ، لأن سقي الإنسان أعظم وأقوى ، ولأن سقي ما عدا الإنسان هو للإنسان في غايته ونهايته ، فكان الإسقاء للإنسان في الابتداء والانتهاء .

﴿ تَشْكُرُونَ ﴾ (الواقعة:٦٨-٧٠) ، ربُّنا هو الذي أنزله من السُّحُب وليس نحن : ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (الواقعة:٧٠) ، أي : لولا تشكرون هذه النِّعمة .

كما قال في آية أخرى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ (المؤمنون:١٨) .

فلو كان نزول الماء من غير حساب ، كان سَيُغْرق الدنيا ، فلا نستطيع أن نشربَ منه ، ولا نُحيي به الأرض ، ولا نزرع زرعًا ، كما في الآية السابقة : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر:٢١) .

حفظ الماء العذب :

﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ (١)

لم يحفظ الناس قديمًا الماء العَذْبَ في خزَّانات . الآن تمكَّن الناس أن يقيموا خزَّانات فوق بيوتهم ، تجمع الماء وتحفظه ، يومًا أو اثنين أو ثلاثة ، أمّا أن ينشئوا خزانات للمياه التي تَروي الأرض ، وتسقي الزرع ، وتسقي البهائم ، وتسقي الناس ، فهذا ما أنتم له بخازنين ، الله هو الذي يخزنه عنده ، ويُنزِّله بقَدَر ، ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الباء في قوله سبحانه : ﴿ بِخَٰزِنِينَ ﴾ لاستغراق النفي ، أي : ليس لكم أي عمل في خزن هذا الماء في السحاب ، وكأنه شبه السحاب بمخزن للماء ، خزن فيها ، إذ يخرج من الأرض بخارًا ثم يتكاثف فيها ، ثم يوزعه سبحانه في الأرض .

(٢) أي لستم بخازني الماء العذْب الذي رزقناكم به ، بل حفظه في باطن الأرض والأنهار بقدرتنا نحن ، فهو سبحانه جعل بينه وبين الماء المالح حاجزًا حتى لا يختلط به ، وجعله ينبع من العيون ويجري سواقي وأنهارًا ، فهو من الله سبحانه إيجادًا وحفظًا .

OBEIKANDL.COM

آيات الله في الإحياء والإماتة :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ (١)

الله وحَدهُ هو الذي يُحيِّي ويُميت ، يُوجد الحياة في فاقدها ، ويُزيل الحياة ممَّن هي فيه .

الحياة الحقيقيَّة والإماتة الحقيقيَّة من أفعال الله وحده في كونه ، وليس كما فعل نمرود حينما قال لإبراهيم إذ حَاجَّهُ في ربِّه : ﴿ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ (البقرة:٢٥٨) .

وإبراهيم قال : ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (البقرة:٢٥٨) .

وقال نمرود : ﴿ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ . فجاء برجلين من عُرْضِ الطريق ، وحَكَمَ عليهما بالإعدام بدون جريمة ، بدون أيِّ شيء . فقال : حكمتُ عليهما بالإعدام . ثم جاء بسيَّافه ، وقال : اضْرب عنق هذا . فقتله ، قال : أنا أمتُّه . وقال للثاني : عفوتُ عنك . قال : هذا أحييته ، والآخر أمتّه ، فأنا أُحيي وأُميت .

فسيدنا إبراهيم لم يُرِد أن يجادله : ما معنى الإحياء ، وما معنى الإماتة؟ هناك شيءٌ في علم الجدل يُسمَّى الانتقال من دليل إلى دليل ، من دليل واضح إلى دليل أوضح منه ، أو من دليل غامض إلى دليل واضح : ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(البقرة:٢٥٨) .

---

(١) في هذه الآية قصران : قَصْر الإحياء والإماتة على الله عز وجل . وقَصْر وراثة كِلِّ شيء على الله عز وجل ، بمعنى ظهور ملكية الله لكلِّ شيء في الأكوان ، لأنَّ الله سبحانه إذا أمات كل الأحياء ظهر انفراده في الملك ، وسقطت المِلْكيات الصورية التي كان قد منحها لعباده . وفي الجملتين قصر حقيقيّ ، من قصر صفة على موصوف ، وأداه القصر فيهما تعريف طرفي الإسناد .

OBEIKAN.COM

فالإحياءُ الحقيقيُّ والإماتة الحقيقيَّة هي بيد اللهُ عزَّ وجل ، الله هو الذي يُحْيّي الأرضَ ، وهو الذي يُحْيّي الكائنات المختلفة ، في البحر ، وفى البرِّ ، الزواحف والطيور والحشرات ، والإنسان ، كلُّ هذا مَن الذي يُحييه ؟

إنَّه الله عزَّ وجل : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت:٣٩) .

الذي يُحيِّي الأرض هو الله عزَّ وجل : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس:٣٣-٣٥).

الثمرة هذه مَن الذي خلقها؟ مَن الذي فجَّر العيون؟ ومَن الذي أجرى الأنهار؟ ومَن الذي أنزل الماءَ وأحيا الأرض؟

إنَّه الله الخالقُ الرازق المُدبِّر الحكيم : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ هذا عمل يد الله ، كما قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس:٧١-٧٣) ، من عمل يدِ الله ، إحياء الأرض ، وإحياء النباتات ، وإحياء الحيوانات ، وإحياء الإنسان ، هو من عمل الله عزَّ وجل ، ليس من عمل الطبيعة .

يقول الماديُّون : هذا من شغل الطبيعة ، هي التي تعمل هذه الأمور . وقالوا : إنَّ مواد الحياة موجودة في الطبيعة .

وهنا نقول لهم ولمَن على شاكلتهم : مَن الذي أنزل خليَّة الحياة الأولى؟ مَن الذي أنزلها وأصبحت تُتوارث بعد ذلك؟ إنَّه الله سبحانه وتعالى .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ ﴾ كلُّ إنسان ، وكلُّ حيوان يموت في موعده في أجله : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المنافقون:١١) .

مؤكِّدات الإحياء :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ بهذه الصيغة المؤكَّدة ، قلنا قبل ذلك : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ ، فيها عدَّة تأكيدات ، جمله اسميَّة ، ثم تأكيدها بإنَّ ، ثم اللام في ﴿ لَنَحْنُ ﴾ إلى آخره .

هنا ﴿ إِنَّا ﴾ ، ثم اللام ﴿ لَنَحْنُ ﴾ ، و(نحن) ضمير فصْل يعنى زيادة في الجملة : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ كلُّها تأكيدٌ أنَّ هذا الأمر بيد الله وحده ، وليس بيد أحدٍ من خلقة .

الله سبحانه وتعالى هو الوارث :

﴿ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾

الوارثُ هو الذي يبقى بعد الميِّت لينتفع بتَركته ، وليرث أملاكه ، والله سبحانه هو الباقي بعد فناء الخلائق جميعًا ، وهو الذي يرثهم ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (مريم:٤٠)، اللهُ هو الوارث : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (القصص:٥٨) ، تَهْلِكُ الأمم وتنتهي ، والذي يَرِثُها هو الله ، ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ ، فهو سبحانه المالكُ لكلِّ شيء بَدْءًا وختامًا ، وهو المالكُ لذوات المالكين .

علم الله سبحانه الشامل بالمُتقدِّمين والمُتأخِّرين :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ [1]

﴿ وَلَقَدْ ﴾ : اللام هذه مُوطَّئة للقَسَم ، يعني كأنَّه أقسم ، و(قد) هنا للتحقيق ،

---

(١) المستقدمون : هم الذين تقدَّموا إلى الموت قبل المخاطَبين . والمستأخرون : هم الذين لم يموتوا بعد سواءٌ أكانوا في الحياة الدنيا ، أم لم يأتوا إليها بمقتضى تقدير الله وقضائه السابق إلى آخر حياة الناس في الأرض .

استَقْدم : بمعنى تقدَّم ، واستَأخر : بمعنى تأخرَّ . السين والتاء فيهما لتوكيد تحقُّق الوصف بالتقدُّم والتأخُّر ، والفعل فيهما فيه معنى المطاوعة الجبرية ، أي : قدَّمهم الخالق البارئ فاستقدموا ، وأخَّرهم الخالق الباري فاستأخروا .

OBEIKANDL.COM

(قد) أحيانًا تأتي للتقليل إذا دخلت على المضارع ، كقولنا : قد يحدُث كذا ، قد يجودُ البخيل ، قد يصدقُ الكذوب . فتكون (قد) هنا للتقليل ، فإذا دخلت على الماضي تفيد التحقيق ، مثل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (المؤمنون:١) ، (قد قامت الصَّلاة) ، إلا في أفعال الله تعالى ، فإنَّها للتحقيق ، سواء دخلت على الماضي أم المضارع ، ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ (النور:٦٣) ، ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ (النور:٦٤) ، ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الأحزاب:١٨) .

فهنا (قد) للتحقيق ، واللَّام مُوَطِّئة للقسم ، كلُّ هذا مؤكِّد على أنَّ علمَ الله مُتحقِّق ، وأنه لا يغيبُ عنه شيءٌ ، ولا يخفى عليه شيءٌ من أمور خلقه .

والمُسْتَقْدمون : الأمم المُتقدِّمة قبل محمّد عليه الصلاة والسلام ، والمُسْتأخرون : الأمم المتأخِّرة بعد محمَّد عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة .

أو المستقدمون : الأموات ، **والمستأخرون** : الأحياء ، أيًّا كان الماضون ، والحاضرون ، والمستقبلون ، كلُّهم يعلم الله أمرهم ، ولا تخفى عليه منهم خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية ، كما قال سيدنا إبراهيم : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (إبراهيم:٣٨) ، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾

(الحجر:٢٤) .

علمُ الله تعالى شاملٌ للمُستقْدِمين وللمُستأخرين ، للماضي وللحاضر وللمستقبل ، لِما كان ولِما هو كائنٌ ، ولِما سيكون ، هو العلم المحيط : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٤٠)، هذا علم الله .

أما علم البشر فهو علمٌ محدودٌ بحدود المكان . فقد تعلم أمورًا حَوْلَكَ ، ولا تعلم أشياء في مكان آخر ، لأنَّ علمك محدودٌ بحدود المكان ، ومحدود بحدود الزمان ، فلا تعرف الماضي إلا عن طريق الخبر والنقل ، ولا تعرف المستقبل ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (لقمان:٣٤) ، لا تعرف وأنت في قطر هنا ، ترى هل ستموت فيها ، أو ستموت خارجها ، إذا كنت في بلد آخر؟ هل تموت في الإجازة؟ أو تموت وأنت مسافر؟ لا تدري ، كما يقول الشاعر :

مشيناها خُطًى كُتبت علينا ... ومَن كُتبت عليه خطًى مشاها
ومَن كانت منيَّتُه بأرض ... فليس يموت في أرض سواها[1]

ولكنَّا لا نعلم أين نموت ، ولا متى نموت؟ الإنسان علمهُ محدود ، أما علم الله تبارك وتعالى ، فهو العلم الواسع : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ (طه:٩٨) ، فهو سبحانه وتعالى ، العليمٌ بكلِّ شيء ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٤).

قدرة الله سبحانه على حَشْر المتقدمين والمتأخرين ومحاسبتهم :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

هؤلاء الذين يُحْيِيهم الله ويُميتهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ ﴾ ، خطابٌ للنبيِّ ﷺ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ ، فهؤلاء لا تنتهي حياتهم بالموت ، إنَّ الموت رحلةٌ إلى دار أُخرى ، كما قال عمر بن عبد العزيز : إنكم خُلقتم للأبد ، ولكن تنقلون من دار إلى دار ، حتى يستقرَّ بكم القرار[2].

---

(١) تنسب هذه الأبيات إلى الشاعر الصوفي عبد العزيز الدريني الدميري المصري ، وكان شيخًا عالمًا سريعَ النظم .

(٢) سبق تخريجه صـ ٤٨ .

OBEIKAN.COM

وقال أبو العلاء في داليته الشهيرة :

خُلــق النــاسُ للبقــاء فَضــلَّت أمَّـــة يحســـبونهم للنفـــاد
إنَّمـــا ينقلـــونَ مـــن دارِ أعمـــا لٍ إلى دار شِـــقْوةٍ أو رَشَـــاد

الناسُ خُلِقوا للبقاء وللخلود ، فَضَلَّت أُمَّة من الناس أو أُممٌ من الناس ، حسبون أنَّهم خُلقوا لفترة محدودة ، ثم ينفدون ويفنون وينتهون بالموت ، فالموت في نظرهم مُنهٍ لحياتهم كلها . وهم إنما يُنقلون بالموت من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد ، ينتقلون بالموت من دار العمل إلى دار الحساب ، فيها الشِّقوة أو السعادة ، فيها الثواب أو العقاب ، فيها الجنة أو النار .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ ، الله سبحانه وتعالى بعد الموت يبْعث الموتى ، وبعد البعث يكون الحشر ، بعد أن يُبعث الناس من قبورهم : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (القمر:٧) ، يحشرُهم اللهُ في المَحْشَر ، مكان التَّجمُّع ، هذا التَّجمُّع العظيم ، الأُمم منذ خُلِقَ آدم إلى أن تقومَ الساعة ، كم من الملايين؟ كم من البلايين؟ كم من التريولونات؟ من البشر الله أعلم .

كلُّ هؤلاء سَيُحشرون في ساحة العَرْض ، يُعرضون على الله عزَّ وجلَّ ، فمنهم مَن يُحشر على وجهه : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ (الإسراء:٩٧) ، ومنهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾

(طه:١٢٤-١٢٦) .

« يحشر النَّاسُ يومَ القيامة حُفاةً عُراة غُرْلا »، كما وَلَدتهم أمَّهاتهم ، غُرْلاً يعنى : غير مَخْتونين ، عاد الإنسان كما خُلق أول مرَّة : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الأنعام:٩٤) ، يُحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرلاً .

قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعا ، ينظرُ بعضهم إلى بعض ؟

قال ﷺ : « يا عائشة ، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ »[1] .

انظر إلى الشاب الذي كان يجلس في الطرقات ، يُغازل هذه ، ويُكلِّم هذه ، وينظر إلى هذه ، أمامه نساء عاريات ، تجده يوم القيامة في حالةِ ذهول من هَوْلِ الموقف ، والتَّرقُّب إلى المصير المحتوم ، فهي نارٌ أو جنَّةٌ ، وهى جنَّة الأبد أو نار الأبد ، لا يُفكِّر أحدٌ في شهوة أو في شيء ، الأمر أهمُّ وأشدُّ من أن يهمَّهم ذلك : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس:٣٤-٣٧) .

دلالة ختم الآية بالإسمين العظيمين : ﴿ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ ، يومَ القيامة للحساب والجزاء ، والثواب والعقاب ؛ لأنه إذا أحاط بهم علمًا لم تصعب عليه إعادتهم وحشرهم .

﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ، ومن حكمته : أن يحشُرَهُم وأن يُجازِيَهُم ، وإلا لو انتهى الأمرُ بالموت ، ولم يكن هناك بعثٌ ولا حسابٌ ولا جزاءٌ . تكون المسألة فوضى ، ليس فيها حكمة ، يَقتُل القاتل ، ويَظلم الظالم ، وينهَب النَّاهب ، ويفعل الطغاة ما يفعلون بالشعوب ، يدوسُون كرامات الناس ، ويهتكونَ حُرُمات الخلق ، ويسفكون دماءَ البشر بالألوف أو الملايين ، ثمَّ يموتون وانتهى الأمر . كثيرٌ من هؤلاء لم يُعَاقبوا في الدنيا ؛ لأنَّ القانون لم يطلهم ، وأحيانًا هم يكونوا حُماة

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٩)، كما رواه أحمد (٢٤٢٦٥)، والترمذي في التفسير (٣٣٣٢)، والنسائي في الجنائز (٢٠٨٣) .

القوانين ، وواضعي القوانين ، هم الحكَّام ـ حاميها حراميها ـ إذن كيف يُحاكَم ، وكيف يُعاقَب؟ لن يعاقبه أحد ، ثم تنتهي الدنيا . إذن هذا يكون باطلا ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (ص:٢٧،٢٨) .

مستحيلٌ هذا في حكمةِ الله تعالى ، وفى عدله ، أن يُساوي بين البَرِّ والفاجر ، وأن يساوي بين المؤمن والكافر ، وأن يساوي بين العادل والظالم ، وبين المحسن والمسيئ ، هذا يتنافى مع العدل الإلهي ، ومع الحكمة الإلهيَّة ، ولذلك قال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ومن حكمته : أنه جعل دارًا للجزاء ، دارًا للحساب ، يُوفى فيها كلُّ امرئ ما عَمل ، وتُجْزَى كلُّ نفس ما كسبت ، لا يُظلم أحدٌ شيئًا : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة:٧،٨) .

كلُّ واحد سيرى عمله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (الزلزلة:٦) ، مكشوفة أمامهم ، ويُجَازَوْا على هذه الأعمال : ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (النحل:١١١) .

وهذا مبنيٌّ على حكمة الله ، وعلى علم الله ، إنَّه يعلم مَنْ أحسنَ ومَنْ أساء ، يعلم الخيِّر من الشِّرِّير ، يعلم الطيِّب من الخبيث ، ويَجْزي كُلاًّ منهم بما عمل ، لا يظلِمُ أحدٌ شيئاً : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس:٤٤) ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .